حكايات بطولية للأطفال (٤)

الزمن الحزين في دير ياسين

حياة البلبيسي
و
حلوة زيدان

المؤلفة:
روضة الفرخ الهدهد

الإشراف الفني:
ياسر الدويك

إلى الآباء والمربين

عندما أمسكت القلم لأكتب عن دير ياسين كانت مشاعري متقدة وعواطفي فياضة .. ذلك لان حادثة دير ياسين هي أعنف حادثة في تاريخ فلسطين الحديث ، قلبت موازين تاريخ الشعب الفلسطيني والعربي ، انها الانعطافة الحادة والخطرة التي غيرّت مجرى حياة الاف الفلسطينيين وملايين العرب . منها بدأت عملية ارهاب الاهالي في جميع انحاء فلسطين ، وبعدها بدأت الهجرة الحقيقية لهؤلاء المساكين .! الشعب الفلسطيني !

وعندما بدأت بتجميع المعلومات عن دير ياسين ، كنت أكثر ألماً واكثر حدةً ، فالمذبحة تتجاوز في بشاعتها كل ما قيل ويقال عنها ، انها فيا أرى أبعد بكثير من عدد ضحاياها فلقد تجاوزت آثارها مقتل المئات ، أو استباحة الاعراض ، أو بقر بطون الحبالى ، الى ما هو أفعل واقوى في توجيه حركة تاريخ شعبٍ باكمله ، ان المذبحة هذه أفظع ألف مرة مما فعل الألمان النازيون باعدائهم ، ومع هذا فقد أتخذ العدو من افعال النازيين ذريعة ، ومضى يبني القصص والافلام التي بالغ فيها حتى غدت مصدراً من مصادر الثقافة الغربية عن الألمان وما فعلوه .

حاولت اليوم في كتابي أن أمضي الى ما وراء الاحداث لأجنب الصغار منظر الجرائم وأنقلهم الى دور الصبر والقدرة على المعاناة ، حاولت أن أخفف تركيز الجرائم الكثيرة التي ظهرت في دير ياسين ، لانني اريد من اطفالنا وفتياتنا أن يتعلموا من هذه الحادثة الامور الايجابية لا السلبية، اريدهم ان يعرفوا الواقع الذي عاشه آباؤهم ، ولكن بدفعة الى الامام وليس بالتباكي عليه .

المراجع

١ ـ جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن . صالح سعود ابو بصير ـ ص ٤٢٤.

٢ ـ دير ياسين جذور وأبعاد الجريمة في الفكر الصهيوني . عرفات حجازي .

٣ ـ دير ياسين . عدنان مروم بك . مسرحية شعرية .

٤ ـ الاخوات الحزينات .. نجاتي صدقي .

٥ ـ ابو مصطفى امين فارس ملحس . الاسطر الحمراء ص ٢١ .

٦ ـ مذكرات الارهابي مناحيم بيغن .

٧ ـ النكبة عارف العارف ص ١٧١ ـ ١٧٦ الجزء الاول .

٨ ـ مجموعات مجلة فلسطين الهيئة العربية العليا .

٩ ـ شهيدة دير ياسين (قصة شعرية) . محمد عبد المنعم رضوان .

١٠ ـ دير ياسين/ رواية عاصم الجندي .

١١ ـ مقابلة على أربع جلسات مع عائلة أسعد التي استشهد منها ٣٥ شخص في دير ياسين .

الإهـداء :

إلى ذكرى غسان كنفاني
إليه حين أعطى القضية قلبه وفنه وقلمه .. ثم حياته ..
إليه حين كان يصنع من الكلمة قضية .. ومن الفن سلاحاً ..
إليه حين كانت كتبه منارة تضيء تاريخ فلسطين ..
إليه وإلى كل من كتبوا للقضية ....
علَّ الكلمات كل الكلمات .. تتحول إلى قنابل ورصاص

قرية دير ياسين
بهدوئها وصفائها

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة البلبيسي و حلوة زيدان

﴿١﴾

على مرتفعٍ من الأرضِ في فلسطين تَنبسطُ أراضي قريةٍ عربيةٍ هادئةٍ هي دير ياسين ، ترتفعُ من ناحيةِ جبلِ (القسطلِ) ، وتنبسطُ أمامَ مدينةِ القدسِ العربيةِ.

كانت دير ياسين قريةً صغيرةً ، وهبَها اللهُ كلَّ ما تحتاجُ اليهِ من رغدِ العيشِ وهدوئه، معظمُ سكّانِها أغنياءَ ميسورون . فسهولُهم الخصبةُ تنتجُ لهم الكثيرَ من أنواعِ الحبوبِ والفواكهِ والخضارِ ، ومراعيهم ترعى فيها الأبقارُ التي تعطيهُم الحليبَ والجبنَ واللحمَ .. حتى جبالُهم كانت تعطيهُمُ الحجارةَ القاسيةَ للبناءِ .

وقد عاشَ الحاج عايش في هذه القريةِ الهادئةِ مع أسرتِهِ ، وبنى بيتاً على أرضِهِ في أولِ القريةِ ، وسطَ بستانٍ كبيرٍ زرعَ فيه الرمانَ الحلوَ والحامضَ ، والخوخَ الأحمرَ ، والبرقوقَ (أبو ريحة) والبرقوق (السان روزا) والعنبَ الأبيضَ والاسودَ والتينَ :

ـ قومي يا أمَّ محمد ، نصلُ الصبحَ وننزلُ البستانَ فما ألذَّ طعمَ التينِ والندى عليهِ .

وينزلُ الحاج عايش وزوجتُه أم محمد ـ (حلوه زيدان) يتجولانِ في البستانِ ، يقطفانِ الفاكهةَ الطازجةَ ، ويتفقدانِ الشجرَ ، هذه شجرةُ الكرزِ يعلقانِ عليها لعبةً بملابِسها ، حتى تخيفَ العصافيرَ فلا تقتربُ منها ، وهذهِ شجرةُ العنبِ يغلفانِ قطوفَها حتى لا يأكلُها النحلُ والدبابيرُ ، وهذا الزيتون ، ما شاء الله ، حاملٌ ولا يحتاجُ الا للقطفِ ، والبندورةُ عذبةٌ حمراء ، والبازيلا ناضجة ...

تقولُ أم محمد :

ـ البركةُ فيكَ يا أبا محمد .. لا ينقصُنا شيء ، حتى الدجاجَ والأرانبَ والحمامَ نُربّيهِ هنا فنأكلُ منه البيضَ واللحمَ .

كانت الحياةُ جميلةً في دير ياسين . وكانتِ القريةُ تستعدُّ للاحتفالِ بزفافِ ابنةِ الحاج عايش (علياء) ، وقد بدأتِ الليالي السَبع قبلَ الزفافِ .. الليالي الحلوةُ ، حينَ تحلو السهرات في بيوتِ أقاربِ علياء ، يسهرونَ على ضوءِ اللوكسِ يتلاعبُ ويرقصُ مع النسيمِ ، بينما يرقصُ الشبابُ ويدبكونَ على صوتِ الطبلِ والمزمارِ .

الحاج عايش

حلوة زيدان

﴿٢﴾

قبلتْ حياةُ البلبيسي والدتَها وقالت لها :

ـ سأذهبُ الآنَ يا أمي إلى دير ياسين فلقدْ حانَ موعدُ تحرُّكِ الباصِ . فهل توصين بشيء ؟

ـ لا يا ابنتي ـ الله معك وأنا عندي أختُكِ ترعاني .

كانت حياةُ البلبيسي تسكنُ مدينةَ القدسِ ، وتُسافِرُ يومياً الى دير ياسين حيثُ تعملُ مدرِّسةً في مدرسةِ البناتِ في القريةِ . وكانت أُمها تعاني من بعضِ الألمِ في قدميها ،

فلا تستطيعُ التحرُّكَ ، ولكنَّ ابنتهَا الصغرى أمل تساعدُها وترعاها . وحياةُ تعملُ في هذهِ القريةِ البعيدةِ حتى تتمكّنَ من إعالةِ والدتِها وأُختِها .

كانت حياةُ تركبُ الباصَ الذي يتحركُ كلَّ يومٍ مرتينِ باتجاهِ قريةِ دير ياسين ، مرةً في الصباحِ وأُخرى في المساءِ ، يتحرَّكُ من موقفهِ في (بابِ الخليلِ) بالقدسِ ويقفُ أمامَ (تجمُّع شاؤول) قربَ قريةِ دير ياسين ، حيثُ تنزلُ حياةُ والركابُ ليكملوا الطريقَ مشياً على الأقدامِ الى القريةِ .

وكانَ قلبُ حياة يمتلىءُ سروراً عندما كانت ترى تلميذَتها زينب تحضرُ الى موقفِ الباصِ كلَّ يومٍ ، مع بعض زميلاتِها كي يسلِّمنَ عليها ، ويمشينَ معها مشوارَها اليوميَّ الى المدرسةِ ، بل أن زينب تمشي قُربهَا وتمسكُ بيدها بخجلٍ ولطفٍ وكأنَّها تشكرُها كلَّ يومٍ لحضورِها للقريةِ .

تمسكُ زينبُ يدَ معلّمتِها بخجلٍ وتقول :

ـ معلمتي ! أُمي تسلّمُ عليكِ ، وتقولُ لكِ ، تفضّلي اليومَ عندنا للغداءِ ، فنحنُ نقيمُ وليمةً بمناسبةِ اقترابِ موعِدِ زفافِ أختي علياء .

تذهبُ حياةُ البلبيسي الى بيتِ تلميذتِها زينب ، بيت حلوة زيدان لتلبيةِ الدعوةِ ، وهناك تسألُها حلوة :

ـ لا أدري يا ست حياة ما الذي يدورُ عندَ اليهودِ في التجمّعاتِ التي حولَنا ؟

ـ ماذا تقصدينَ يا حلوة ؟

ـ أقصدُ اليهودَ الذينَ حولَنا في (تجمُّعِ شاؤول) ، (وتجمُّعِ مونتنفيوري) ! لقدْ كانوا الى وقتٍ قريبٍ يعيشونَ بهدوءٍ قربنَا ، يشترونَ منَّا بعضَ الفواكهِ والخضرواتِ ، ونشتري منهم بعضَ لوازمِ البناءِ . ولكنَّهمُ اليومَ ما عادوا كما كانوا بالأمسِ ! إنهم يزيدونَ من أعدادِهمِ بالآلاف . ونراهُم يتسلَّحونَ دائماً ، بل ويشترونَ الدباباتِ ويتجولونَ فيها في تجمُّعاتِهم ، فلماذا يا ترى ؟ أفهميني يا ست حياة .

حلوة زيدان
والحاج عايش
يقطعان الفاكهة
ويتفقدان الشجر

وترد عليها حياة البلبيسي :

ـ يا أُمَّ محمد ، إن اليهودَ هذهِ الأيامَ ، غيرُ الذينَ كانوا يعيشونَ معكُم بهدوءٍ . لقد أصبحوا أُناساً معتدينَ ، يطمعونَ في الاستيلاءِ على أرضِ فلسطينَ العربيةِ وإقامةِ دولةٍ لهم . بل ويُريدونَ طردَ أصحابِ الأرضِ الأصليين العرب ، ليستولوا عليها ، ويُسكنوا بدلاً منهم مهاجرينَ صهاينة يحُضرونَهم من أنحاءَ متفرقةٍ منَ العالمِ .

وتسألُ حلوة بدهشةٍ :

ـ ومن أينَ لهم بالسلاحِ ؟

وتجيبُ حياة :

ـ يشترونَه من أوروبا ويهرِّبونَه للبلاد ، لقد سمعتُ يا حلوة أنهم يشترونَ السلاحَ من أيِّ مصدرٍ في أوروبا ثم يشحنوه على السفنِ الى مرافىءِ فلسطين ، حيثُ ينزلونَ الشحناتِ ويخبئونَها في مستعمراتِهم ...

ـ والانجليز .. ألا يعرفونَ ذلك ..؟ ألا يمنعونَهم ؟ أليسوا هم الذينَ يمنعونَ العربَ من شراءِ أي قطعةٍ من السلاحِ ؟

ـ نعم ، إنهم يمنعونَ العربَ من حملِ السلاحِ ، أو حتى حيازَته ، ولكنَّهم يُغمضونَ أعينهم عن تسلُّحِ اليهودِ ، يَرونَ سفنَهم تحملُ الآلاف من البنادق ولا يعترضون . لقد كانت قبلَ مدة سفينةُ (التلينا)الاسرائيلية ،تنزِلُ ألفي بندقيةٍ ، وأكثرَ من مائتين وخمسين

حياة البلبيسي المدرِّسة
في قرية دير ياسين

مدفعاً ثقيلاً (برن) ، والكثيرَ منَ المدافعِ الخفيفةِ لعصابةِ (الأرغون) التي يرأسُها (مناحيم بيغن) ، وقد عرفَ بها الانجليز، ولكنهم لم يحرِّكوا ساكناً ، بل وأكثرُ من هذا ، تصوري يا حلوة أن بعضَ الجنودِ الانجليز يساعدونَ هذه العصابةَ في الاستيلاءِ على الأسلحةِ من مستودعاتِ الجيشِ الانجليزيِ نفسِهِ .. فلقد قامتْ مجموعةُ من إرهابيي عصابةِ (الأرغون) هذه بالهجومِ على مستودعاتٍ للانجليز في منطقةٍ تُدعى (رحبوت) واستولوا بمساعدةِ الحرّاسِ الانجليز على مئاتٍ منَ البنادقِ ، وكميةٍ من مدافعِ البرن وكثيرٍ من المدافعِ الخفيفةِ والذخيرةِ ...

وتقولُ حلوة زيدان هامسةً :

ـ آه : فهمت ؛ إذن لهذا السبب يخُفي ابني محمد بندقيتَهُ ، بل ولهذا السببِ نفسِهِ

سَمعتُه يتهامَسُ معَ رِفاقِهِ منذُ مدةٍ ، وفهمتُ أنهم يُريدونَ شراءَ السلاحِ سراً من مصرَ ، ليقاوموا بِهِ الانجليزَ المستعمرين ، واليهودَ الصهاينة .

وهكذا كانَ الحالُ يتغيرُ يوماً بعد يوم .. وأصبحَ من الصعبِ على حياة أن تكمِلَ مشوارَها اليوميَّ، من القدسِ الى دير ياسين ، لتنزلَ أمامَ المستعمرةِ اليهوديةِ (شاؤول) حيث يضايقها

حياة تشرح لحلوة زيدان الفرق بين اليهود الآمنين وحركة الصهيونية

الصهاينةَ ، ولكنّها لن تتركَ تلميذاتِها العزيزات ، لن تتركَ زينب ولا نزيهة أسعد ولا آمنة زهران ، بل لا تريدُ أن تتركَ أهلَ القريةِ ، ثم إنها الوحيدةُ التي تُتقِنُ الاسعافاتِ الأوليةَ ، وتحتفظُ بحقيبةِ الاسعافاتِ الأوليةِ في خزانةِ المدرسةِ ، استعداداً للطوارىء .

﴿٣﴾

تسافرُ حياة للقدسِ وتقولُ لوالدتها :

ـ يا والدتي ، إن المشوارَ اليوميَّ للقريةِ قد أصبحَ صعباً ، بل خطراً ، وقد عرضَ علي

محمد عايش يشرح لحياة البلبيسي تحركات العدو ويريها برج المراقبة الذي بناه

الحاجُ عبد العزيز سمور أن أسكنَ في القريةِ ، لاتجنّبَ رحلة العذابِ كلَّ يومٍ من أمامِ المستعمرةِ اليهوديةِ .

وتجيبُ الأمُّ :

ـ وكيفَ تتركينني يا ابنتي ؟ إنني أخافُ عليكِ من اليهودِ الصهاينةِ ، وأنا أيضاً مريضةٌ وبحاجةٍ لكِ .

ـ أتركُكِ بعنايةِ اللهِ ، ورعايةِ أُختي الصغيرةِ أمل، فالواجبُ يناديني هناكَ في القريةِ، وسأكونُ عندَكِ يومَي الخميسِ والجمعةِ من كلِّ أسبوعٍ فلا تقلقي .

تسكنُ حياة القريةَ الوادعةَ وتلاحظُ التغيراتِ التي تتمُّ كل يوم ؛ تلاحظُ أن الحاج عايش يبني فوقَ بيتِهِ ، فتسألُ صديقتَها حلوة زيدان :

ـ ماذا تبنونَ يا حلوة على ظهرِ سطحِ البيتِ !

ـ إن أبا محمدٍ يبني صومعةً[1] فوق سطح البيت ، غرفةً صغيرةً ، وبها طاقاتٌ صغيرةٌ من كلِّ جهةٍ .

ـ إذن هي بُرجُ مراقبةٍ ؟

ـ نعم . نَبنيها للمراقبةِ وحراسةِ القريةِ ، فبيتُنا ـ كما ترينَ ـ عالٍ ومطرف ، ونستطيع رؤيةَ مستعمراتِ العدوِّ منَ السطحِ ، وسوفَ يتناوبُ الشبابُ حراسةَ القريةِ من جميعِ جهاتِها . صحيحٌ أن اليهودَ قد أرسلوا مندوباً عنهم يطلبُ من مختارِ القريةِ أن نقيمَ فيما بيننا عهداً ، فلا نهاجمُهم ولا يهاجموننا، ولكن يا ست حياة أنتِ أدرى باليهودِ ومكرِهم ، وعدمَ احترامهم للعهودِ والمواثيقِ .

(١) الصومعة : برج مراقبة باللهجة العامية لاهالي دير ياسين.

وقفَ محمد ابن الحاج عايش مع زميله محمود اسماعيل عطيه ، على سطحِ منزلِ الحاج عايش ، يراقبانِ من برجِ المراقبةِ ، المستعمرةَ القريبةَ (شاؤول) والمستعمرةَ الثانيةَ (مونتيفيوري) . قال محمد لزميله :

ـ ألا ترى أنَّ الحركةَ في مستعمرةِ (شاؤول) غيرُ عاديّةٍ ؟ ألا ترى الحركةَ تمتدُّ حتى تصلَ المستعمرتين (مونتيفيوري) و (شرفه) ؟ فما الذي يجري يا ترى؟.. ولمَ كلُّ هذهِ الأضواء ؟ لماذا تتحرّكُ الدباباتُ يمنةً ويسرةً ؟ هل تظنُّه هجوماً علينا ؟

الارهابي مناحيم بيغن
مع زميله ديفيد ليتل
يخططان للهجوم على دير ياسين

المجوم

ويردُّ محمود :

ـ لا .. لا أعتقدُ أنَّهُ هجوم ، قد يكونُ احتفالاً كبيراً عندهم لانتصارِهم بقتلِ البطلِ العربي (عبد القادر الحسيني)، إنَّ المعاركَ تدورُ في كثيرٍ من المناطقِ في فلسطين، بينَ العربِ وأعدائهم . وقد قامت أمس في ١٩٤٨/٤/٨ معركةٌ كبرى على جبلِ القسطلِ ، واستشهدَ فيها البطلُ عبد القادر الحسيني ، وقد يكونُ ذلك احتفالاً بمقتلِه .

ويصمتُ محمد عايش وينظُرُ إلى الخندقِ أمامَ القريةِ ، ويقولُ في نفسه :

ـ إنَّ هذا الخندقَ الذي حفرناهُ أمامَ القريةِ ، بينها وبينَ مستعمرةِ (شاؤول) لن يسمحَ لأيِ سيارةٍ بالمرورِ الى القريةِ . فلمَ القلق ؟

﴿٥﴾

مناحيم بيغن ، الشابُ اليهوديُ الصهيونيُ ، تركَ بولندا التي تقعُ في أوروبا ، وتفصِلها عن فلسطين آلافِ الأميالِ ، تركَ بولندا التي ولدَ وأقامَ فيها هو وآباؤه وأجداده ؛ وجاءَ الى فلسطين.. هربَ من بولندا لأنَّ الألمان النازيين أرادوا سجنَه ، وجاء الى فلسطين ، ليقومَ فيها بمغامراتِه التي يحلُمُ فيها .. مناحيم بيغن الأصفرُ الوجهِ كالمسلولِ .. المتكبِّرُ ، المتغطرِسُ ، الثعلبُ الماكر ، اللصُّ ، جاء ليسرقَ بيوتَ العربِ الآمنين ويشرِّدهم . ألَّفَ عصابةً مجرمةً وسمّاها (الأرغون) لتقومَ بالعملياتِ الارهابيةِ ضدَّ العربِ والانجليز .

يقول مناحيم بيغن لزميلِهِ (ديفيد ليثل) :

ـ أتذكُرُ يا ديفيد عندما نسفنا فندقَ الملكِ داود في القدس ؟ كان ذلك قبل عامين تقريباً في ٢٢/ تموز/ ١٩٤٦ عندها قتلنا أكثر من مائتي ضابطٍ ومسؤول انجليزي وعربي .. كانت ضربتنا تلك أعنفَ ضربةٍ للانجليز .. أتذكر ذلك ؟

سنقومُ اليومَ بضربةٍ أكبرِ وأقوى .. سنهجُم الليلةَ على قريةِ (دير ياسين)، إنني أتحرّقُ شوقاً لعمليتِنا هذه .. لا أستطيعُ الانتظارَ، ستكونُ ضربةً لم يسمعْ بها العالمُ من

قبل ، وسوفَ تكونُ هذهِ القريةُ عبرةً لمن اعتبر من العربِ ، لن نرحَمَ شيخاً ولا أمرأةً ولا طفلاً سنقضي عليهم ونــزرعُ في قلـوبِ العـرب الرعــب . وَلنَ يتمكنوا من مقاومتِنا ، أتــدري لماذا ؟ لأننا أقمنا معهم عهداً وميثاقاً أن لا نهاجمهم .. تصور .. عهداً وميثاقاً ..

ويضحكُ ببغــن ... ويقــول ديفيد :

ـ سننتظرُ حتى ينامَ الجميعُ في القريةِ يا مناحيم ، فنحنُ ، لا نريدُ أن نجازِف بجنودِنــا ، ولا نريدُ أن نخسرَ المعركةَ ... تذكُر ذلك جيداً يا مناحيم ، لا نريُد الدخولَ بمعركةٍ متكافئةٍ مع العرب .

الشباب العرب يندافعون للدفاع عن قريتهم ولم يكن معهم اكثر من تسع بنادق!

ويجيبُ مناحيم بيغن بكلِّ صلفٍ وغرورٍ :

ـ اطمئنَّ يا ديفيد ، لن يقاومَك أحدٌ ، فالقريةُ نائمةُ الآن والجميعُ هاجعون ولن يصحوا أبدا ...

﴿٦﴾

زفَّتِ القريةُ عروسَها المليحةَ الجميلةَ علياء .. حملوها على ظهرِ الهـودجِ من بيتِ والدِها لبيتِ عريسها .. حملوا العروسَ الحلوةَ على ظهرِ الجملِ ، تلبسُ ثوبَ الزفافِ الأبيضِ ، وتزفُّها سيدات القرية ..

وأقام الرجال الدبكاتِ وحلقاتِ الرقص ، والغناءِ الشعبي للعريس ، وأوصلوهُ الى بيتهِ الجديدِ .. وقضت حياة البلبيسي ليلةً حلوةً سهرَ فيها الجميعُ حتى منتصفِ الليل .. ولكنَّ شخصينِ اثنينِ لم يشتركا بحفلةِ الزفافِ ، ذلك هما : محمد عايش ومحمود عطية .. لم تنمْ عيونُهما ولم تغمضْ .. يراقبانِ الطريقَ والمستعمرةَ (شاؤول) ..

وفي الساعةِ الرابعةِ صباحاً ، بدأ العدوُّ بالتسلُّلِ من جهاتٍ مختلفةٍ . وارتفعَ صوتُ محمود عطية : إنَهُ هجوم ... هجوم ... هجم الأعداءُ علينا .. ويوقِظُ محمود بصراخِهِ أهلَ الدار ، زملاءَهُ الحراسَ النائمين ، أُمهُ حلوة زيدان ، أباه الحاج عايش ، القريةَ كلَّها تستيقظ . لقد بدأ الضربُ في الحالِ من كلِّ الجهات ، من الجوِّ طائرةٌ يهوديةٌ أُلقت سبعَ

قنابلَ أو يَزيد ، ومنَ الغرب ، من مستعمرةِ (شاؤول) ، قذفت خمس عشرةَ دبابةٍ ومدفعا مورتر قنابلَ على القريةِ الآمنةِ ، ومن مستعمرةِ (شرفه) تسلّلَ الجنودُ المشاةُ يصعدونَ الجبلَ ، ومن (مونتيفيوري) الجنودُ والدباباتُ .. المكانُ الوحيدُ الرابعُ الذي كانَ مفتوحاً ، هو الطريقُ المؤدّي الى القريةِ العربيةِ (عين كارم) ومنها للقدس .

العصي والحجارة
كانت ولا تزال أسلحة
الشعب الفلسطيني الأعزل

وبزغت الشمسُ [1] ، ومع بزوغِها كانت الطلقاتُ النارية تملأُ الأفقَ ، واندفعَ الشبابُ العربُ السمرُ ، يحملونَ بنادقَهم للدفاعِ عن قريتهم . لن يتركوها للعدوِّ لقمةً سائغةً ، كرومَهم ، زيتونَهم ، بيوتَهم ، أولادَهم .. سيدافعون عن قريتِهم حتى الموتِ .

وقفَ محمد عايش يرمي العدوَّ بالصلياتِ الحارقةِ القاتلةِ ، لمنعِهم منَ التقُّدمِ . كانوا من برجِ المراقبةِ ، ومن خلالِ الفتحاتِ التي فيهِ ، يضربونَ الجنودَ الأعداء فيتساقطونَ قتلى وجرحى . ويصرُخُ محمد :

ـ أنظر يا محمود ، إنهم يخُلونَ جَرحاهم وقَتلاهم حالاً ، ويحضرونَ بدلَ كلِّ قتيلٍ محاربينَ جددا .

ـ سنظلُّ نحاربهُم ونقاتِلهُم ولو أحضروا كلَّ جيشهم .

وتزدادُ ضربات (برن) محمود ومحمد ، وتساندُهم بنادقُ حسين سمور وأصحابُه من الناحيَةِ الأُخرى للقريةِ .

يلتفِتُ القائدُ ديفيد الى مناحيم بيغن بغضبٍ ويقولُ :

ـ أينَ هي القريةُ الآمنةُ النائمةُ يا مناحيم بيغن ؟ أين هوَ الدخولُ دونَ خسائرَ ماديةٍ وجسديةٍ ؟ إنّنا ننقلُ الموتى والجرحى بدلَ أن ندخُلَ القريةَ .

ويجيبُ بيغنْ :

ـ لا تخفْ يا ديفيد ، سأزوِّدُك بمقاتلينَ جدد .

---

(١) بزغت الشمس : أشرقت الشمس

ويقولُ مناحيم بيغن في نفسِهِ :

ـ آه لو أستطيعُ القضاءَ على هذا المنزلِ الذي يحصدُ قواتنا حصداً .

ويردُّ ديفيد بعنف :

ـ نريدُ ان نبدأ ببناءِ الجسرِ الخشبيِّ من على الخندقِ ، رجالُ الهندسةِ والآلياتِ

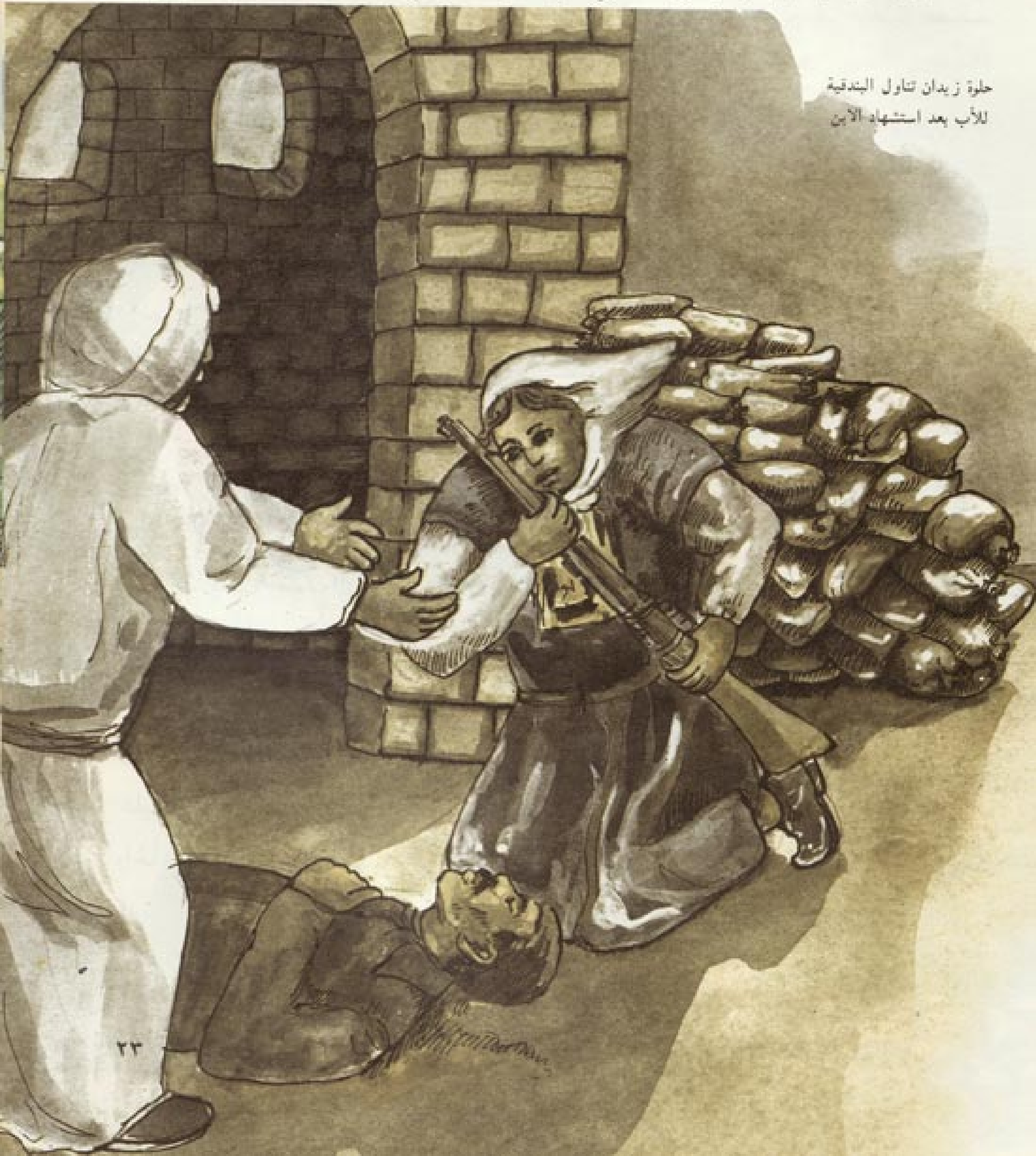

حلوة زيدان تناول البندقية للأب بعد استشهاد الابن

ينتظرونَ الاشارةَ ليضعوا الجسورَ الخشبيةَ ، لتعبُرَ قوّاتُنا للقريةِ ، فكيفَ نبني والرَّصاصُ يتساقطُ علينا ؟

ويصمتُ مناحيم بيغن ولا يجيب ، ينزِلُ حالاً ، لمدفعِ الموتر ويبدأُ بنفسِهِ قصفَ منزلِ الحاج عايش .

يدخُلُ علي صارخاً ، ماتَ محمد عايش ، استشهدَ ، أطلقوا عليهِ الرصاصَ فقتلوه .

وتزغردُ حلوة زيدان ، تزغرِد لموتِ ابنِها ، وتنطَلِقُ الى السطحِ تناوِلُ زوجَهَا الحاج عايش بندقيةَ ابنِهِ:

ـ خذْ هذه ، فقد جاء دورك.

ويأخُذُ الحاج عايش البندقيةَ ، ويطلِقُ تجاهَ رجالِ الهندسةِ :

ـ لا لن تبنوا الجسورَ ، ولنْ تمرُّوا إلاّ على أجسادِنا .

﴿٧﴾

استيقظت حياةُ البلبيسي وقدْ هزَّها صوتُ الانفجارات ، أينَ أنا ؟ وما هذا الذي أسمعُ ؟ كانَ يجبُ أن أكونَ الآنَ بجانِبِ أُمي وأُختي ، أين أنا ؟

تلبِسُ حياةُ البلبيسي ما تجدُهُ قريباً منها بسرعةٍ وتندفِعُ للشارِع . ترى الرجالَ والنساءَ وقد خرجوا من بيوتهم ، يتحدَّثونَ عن هجومِ اليهودِ على قريتِهم . ترى (عيسى عليان) يحملُ بندقيةَ صيدٍ قديمةٍ ، وينطلِقُ بها ليدافِعَ عن قريتِهِ . ترى الشيخ أحمد جابر ، والحاج أسعد رضوان ، الشيخين المسنين يحملان عصيَّهما والحجارةَ ؛ وهما يصيحان : (إنها بلدُنا ويلكم منا ....)

وقفت حياةُ البلبيسي تفكرُ بأمرِها : ستسمعُ أمي الآنَ بالهجومِ على دير ياسين ، وستثورُ في نفسِها الذكرى ، ذكرى استشهاد والدي .. ستقلق عليَّ فهل أسافرُ لها ؟.. السيارةُ أمامي لايصالي الى (عين كارم) ومنها للقدسِ فهل أسافر ؟..

وتسقُطُ بالقربِ من حياة قذيفةٌ ، وترى الشيخينِ اللذين يحملانِ عصيِّها والحجارةَ ، وقد قضتْ عليهما الدبابةُ ، ولم ترحَمْ شيخوختهما .
وتسمعُ حياةُ أنينَ (عيس عليان) يتألَّمُ

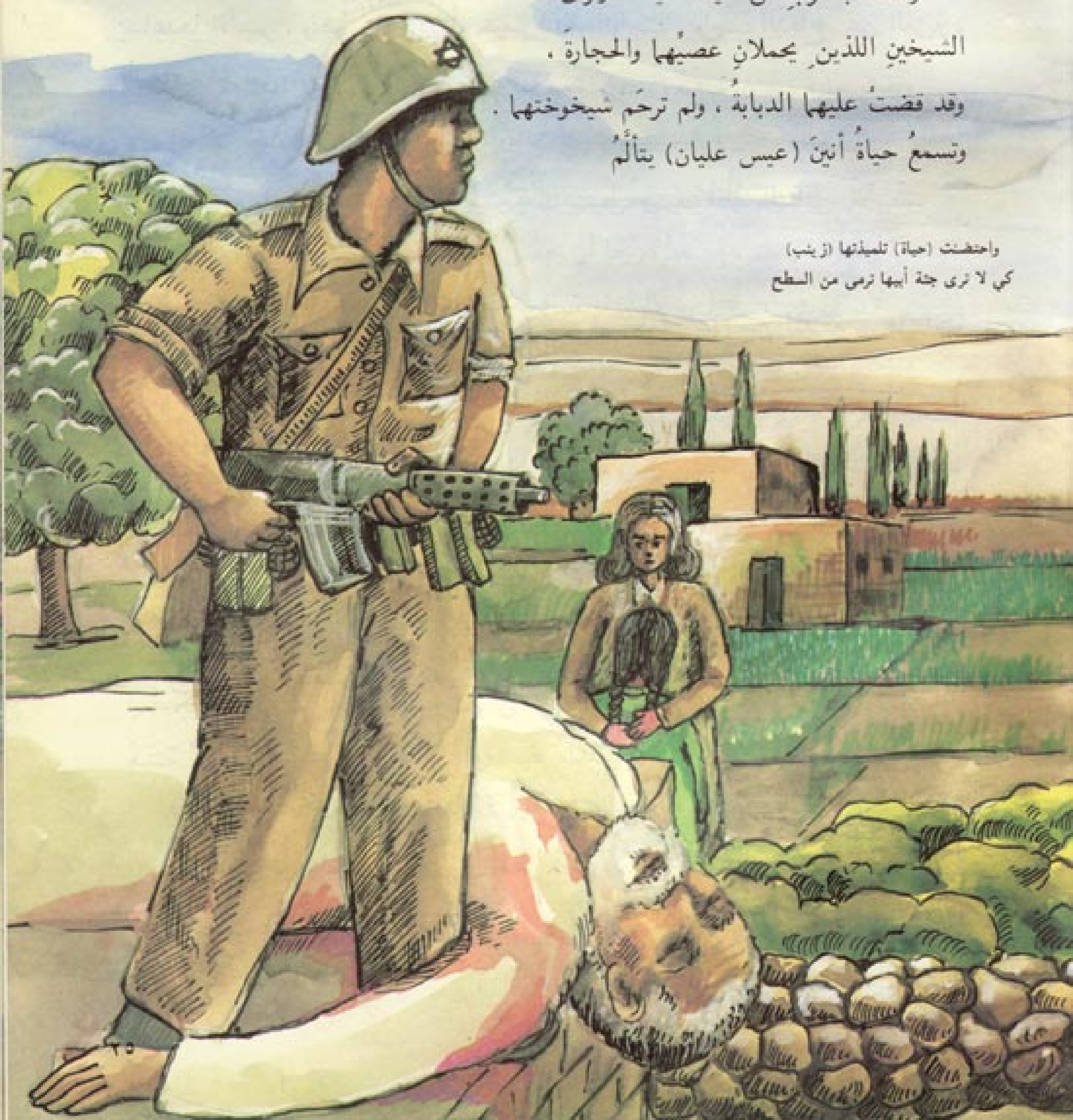

واحتضنت (حياة) تلميذتها (زينب)
كي لا ترى جثة أبيها ترمى من السطح

من شظيةٍ أصابتَ انحاءَ جسمِهِ ، فتقول : كيفَ لي أفكرُ بأُمي وهيَ على سريرِها ، وأنا أرى أمامي (عيسى عليان) يحتاجُ اليَّ وهو ملقى على الأرضِ ؟

تنطلِقُ حياةُ الى المدرسةِ ، وتحملُ صندوقَ الاسعاف ، وتضعُ شارةَ الهلالِ الأحمرِ على ساعدِها الأيسر ، وتمضي بلا ترددٍ أو خوفٍ لنداءِ الواجب ، واجبِ الدفاعِ عن القريةِ ، واسعافِ الجرحى .

إنحنت حياةُ على (عيسى عليان) وقالت :

ـ تشجَّع يا عيسى .. شد حيلك ، فجُرحُك بسيط ، وسوفَ ألفُهُ بالشاشِ الأبيضِ .

ويجيبُ عيسى :

ـ لا يهمُّني الجرحُ واللهِ يا ست حياة .. أُريدُ أن أطمئنَّ على سيرِ المعركةِ ... هل أتتنا نجدةُ من قرية (عين كارم) ؟

وتقول حياة:

ـ إطمئن الآن ، كلُّ شيءٍ على ما يرام .

وتساعِدهُ في الوصولِ الى مكانٍ أمينٍ ، وتنظرُ حولَها فاذا بها ترى تلميذَتها زينب تركُضُ تجاهَها ، وتُمسِك بيدِها بخوفٍ واضطرابٍ.

وتسألُ حياة بِدهشة :

ـ ما الذي جاءَ بكِ يا زينب !؟

وتجيبُ زينب بكل لهفةٍ وخوفٍ :

ـ الحقيني يا معلمتي ، والدي في خطر ، الدم ، الدم ...

وركضتْ حياةُ البلبيسي مع زينبٍ .

﴿ ٨ ﴾

وقفت حلوة زيدان خلفَ زوجِها الحاج عايش ، تُشجّعهُ ، وتُناوِلُه الرصاصَ ، ولكنَّ الحاج عايش يتلقى ضربةً فيسقُطُ مضرجاً بِدمِهِ .

تتشجّع حلوة زيدان .. يقوّي من عزيمتِها موتُ زوجِها دفاعاً عن بيتِهِ وأرضِهِ ، وتحمِلُ البندقيةَ وتضرب . نعم ، لم يَعُدْ دورُها أن تحمِّسَ الحرّاسَ ، وتؤمِّنَ لهمُ الأكلَ أو الشراب ، أصبحَ الآن دورها أن تضرِبَ بالنار ، وأن تستشهدَ هيَ الأُخرى دفاعاً عن أرضِها .

مناحيم بيغن مُصرٌّ على قتلِ حاميةِ بيتِ الحاج عايش . يريدُ أنْ يقضي عليهم ، ليدخلَ القريةَ ، ويريدُ إيقافَ المزيدِ منَ الخسائرِ بينَ جنودِهِ ... وينجَحُ في ذلك ، ولكنّهُ نجاحُ مؤقتُ ، إنَّ محمود عطية رجلٌ يصعُبُ القضاءُ عليه .

نظرَ محمود عطية فرأى الذخيرةَ وقد نفذت ، ورأى الأعداءَ يتقدّمون فقال : الحربُ كرٌّ وفرٌّ .. سأنطلِقُ الآنَ الى قريةِ (عين كارم) لاحضارِ النجدةِ.[1]

﴿ ٩ ﴾

تصلُ زينب مع معلّمتِها حياة البلبيسي الى بيت الحاج عايش . وترى حياة أمراً عجباً تقشعرُّ لَه الأبدان ..! ترى الأعداءَ يصعدونَ بيتَ الحاج عايش ويرمونَ جثتَهُ من السطحِ .. يا ربِّ ! ما هذه الوحشية ! عجوزٌ في الثمانينَ ويرمونَه بلا هوادةٍ ؟!.

(١) في قصة أخرى سنعرف قصة محمود عطية.

تحتضِنُ حياةُ تلميذتَها زينب خشيةَ أن ترى ما يؤلِمُها ، وتتجهُ الى بيتِ زهران علَّها تجدُ مأوى لزينب ؛ ولكنْ أينَ المأوى ؟

ـ للّهِ ماذا أرى ؟ عائلةُ زهران تنامُ كلُّها على الشرفةِ ، والبلدُ في حيص بيص[1] ؟. كيف لهم أن يناموا والحالةُ على هذا النحو ؟

الأبُ والأمُ والأولادُ الأربعةُ ينامونَ قربَ بعضهم البعض ؟ وتمعِنُ حياة النظر ، فتعرِفُ الحقيقةَ ... إنّه النومُ الأبديُّ .. للّهِ ما أقسى قلوبَ الأعداءِ ، قتلوا الأبَ والأمَّ والأولادَ ، وأشعلوا النارَ في الدارِ . وتسمع بكاءَ طفلٍ في داخلِ البيتِ فتهرَعُ لانقاذه .. إنَهُ إبنهم في العاشرةِ من عمرهِ ، خرجَ من مخبأهِ تحتَ السرير . أمسكت حياة بيدهِ توصِلَهُ إلى طريقِ قريةِ (عين كارم) ، ينجو بنفسِهِ اليومَ من أجلِ أن يكبُرَ ويشتدَّ ويتدربَ على الدفاعِ عن نفسِهِ ووطنِهِ ، ضد هؤلاء المتوحشين .

تتقدّمُ حياة قليلاً لترى الحاجة أمينة سمّور ، عجوزاً .. تخرُجُ من بيتِها رافعةً يديها الى أعلى ، يلحقُها حفيدُها ممسكاً ثوبهَا ، مسكينةُ الحاجة أمينة إنها مسالمة ، لم تفكرُ يوماً بايذاء أحد .. إنها تجلِسُ طولَ النهارِ ، تلاعِبُ أولادَ ابنِها الصغارَ ، وتحكي لهم القصصَ ، فماذا تفعلُ بها هذه المجنّدةُ الاسرائيليةُ اللعينةُ ! لماذا تدفَعُها هكذا ببندقيتها ؟

يا الله ..! إنها تأخذُ من يديها أساورَ الذهبِ ، بل وتأخذُ الحلقَ من أذنيها .. هكذا إذن .. يريدون أيضاً سرقةَ الذهبِ والأموالِ من أهلِ القرية ؟ ليتهم استعدوا لهذا قبلَ الآن .. ليتهم اشتروا السلاحَ بدلَ الذهبِ ، ليتهم اشتروا البنادق للدفاعِ عن قريتهم .

---

(١) حيص بيص: تعبير يدل على أن البلد في اضطراب

ومن بعيد .. تسمعُ حياة صوتَ الجنديِ الاسرائيليِ يدقُ منزلَ العروس علياء بشدةٍ ويقول :

ـ افتحْ .. افتحْ .. افتحْ البابَ والاّ ضربتُكم بالنارِ .

المجندة الاسرائيلية تحشد
ما تبقى من بنات القرية
لأخذ الذهب والحلي منهن

وتفتحُ علياءُ البابَ ، ليدخلَ الضابط .. ثوبُ الزفافِ لا يزالُ على السريرِ ، والعريسُ لا يزالُ بملابِسِ النومِ ، ليكن .. وليُتحولْ ثوبُ الزفافِ الأبيضِ الى أحمر .

أسرعت حياة تسعفُ الجرحى ، وأمسكت بيد علياء تحتضِنها ، وتخفّفُ عنها الألمَ ،

يريدون الأرض بلا أهل ولا ناس .. يقتلون بلا رحمة .

وسمعت حياة المجنّدَةَ الاسرائيليةَ تدفَعُ بعضَ النسوةِ ببندقيّتِها وتقول :

ـ امشوا أمامي إلى تلكَ الدارِ .

حشدٌ من بناتِ القرية يبكينَ ويتهامسن .

وتلكُزُ المجندةُ الاسرائيليةُ بطرفِ بندقيتِها إحدى السيداتِ وتقولُ :

ـ أدخلي .. أين الذهب .. أين ذَهبُكِ .. كلكنَّ تخفونَ الذهبَ على خصورِكنَّ .. أخرجيه الآن ..

حتى العروس والعريس يقتلهم الجندي الاسرائيلي لأنه يريد الارض دون السكان

تدخل الحاجةُ أمينة مع حفيدها لترى ما تبقّى من بناتِ القرية يبكين ويتهامسن عن أخبار المعركةِ وما شاهدنه :

ـ يقولونَ أنهم يضعونَ القتلى والجرحى داخلَ البئرِ ..

ـ يقولونَ إنهم يبقرون بطون الحوامل ...

ـ يقولونَ أنهم يجمعونَ الرجالَ من بيوتِهم ، ويضعونَهم في ساحةِ المدرسةِ إستعداداً للاجهازِ عليهم ..

ـ وابني ! هل ابني معهم ؟

ـ وزوجي ..؟!

ـ وأخي ...؟!

ـ وأبي ...؟!

كانت حياة تقتربُ من جريحٍ تسعِفُهُ ، لم يكنْ معها مزيدٌ من الشاشِ الأبيضِ ، ولذلك أخذَت غطاء رأسِها وقسمتهُ قسمين ، تربُطُ به الجراح .

وقفَ الجنديُ الاسرائيليُ ينظُرُ الى حياة البلبيسي ؛ ويقولُ لزميلِهِ :

ـ انظر الى تلكَ الفتاةِ الجريئةِ ، سأضربُها بالنارِ .

ـ إياك !.. إنها تحملُ شارةَ الهلالِ الأحمرِ . وهذا يعني انها تُسعفُ الجرحى فقط .. ولا تُقاتِل ضدنا.! لا يمكنُ قتلَ الذينَ يعملونَ لاسعافِ الجرحى، كلُّ قوانينِ العالمِ تمنع ذلك.

ونظرَ اليهِ زميلهُ باستهزاءٍ قائلا :

ـ وهل تظنُّ أن قائدنَا مناحيم بيغن سيعجُبهُ ذلك ؟ إنه لا يريدُ الاّ رافعي الأيدي أو

القتلى . يريدُ الأرضَ بلا سكان ، ليبني المستعمراتِ اليهودية بدلا منها ![1] لن أتركَها حتى لو كانت تضعُ شارةَ الصليبِ والهلالِ الأحمرِ معاً .

ويطلقُ النارَ على ذراعِ حياةِ البلبيسي وعلى شارةِ الهلالِ الأحمرِ بالذات.

١- بني في أراضي دير ياسين تجاه القدس مطار عسكري ومستشفى يهودي.

أسئلة

١- كيف كانت تعيش قرية دير ياسين ؟

٢- لماذا تغيرت حياة اليهود ونفسياتهم في تجمعاتهم التي كانوا يقيمون بها ، واصبحوا معادين للعرب ؟ استنر برأي حياة البلبيسي وهي تشرح ذلك لحلوة زيدان.

٣- هل كان الانجليز يسمحون للعرب حيازة او شراء الاسلحة ؟ وهل كانوا يعاملون الصهاينة بالمثل ؟

٤- بالرغم من كل قوانين الانجليز الا أن محمد عايش وبعض زملائه اشتروا السلاح بالسرّ وخبأوهُ .. لماذا ؟

٥- من أين جاء مناحيم بيغن الى فلسطين ، ولماذا ترك بلاده التي ولد فيها ؟.

٦- لم يتوقع مناحيم بيغن ان يدافع اهلُ دير ياسين عن قريتهم للاسباب التالية :

إ- اختياره دير ياسين بالذات لانها قرية مسالمة لم تشترك بالمعارك التي كانت تدور في معظم ارجاء فلسطين في ذلك الوقت .

ب- إقامة العهد والميثاق بين اليهود المتجاورين وقرية ديرياسين بعدم الهجوم على بعضهم البعض .

جـ- انشغال القرية بالعرس وبدء الهجوم في الرابعة صباحاً والقرية هاجعةٌ نائمة .

ضع اشارة امام الاجابة الصحيحة :

السبب الأول (أ) السبب الثاني (ب) الاسباب الثلاثة معاً (أ+ب+ج)

٧- بعد استشهاد محمد عايش استلم بندقيته كل من بالترتيب :

١) .....

٢) .....

٨- ما هو دور حياة البلبيسي في المعركة ؟

٩- لماذا كان الاعداء يقتلون العرب الآمنين ، حتى الذين لا يحملون السلاح ... ضع اشارة امام الاجابة الصحيحة .

أ) يريدون الاستيلاء على القرية دون سكان .

ب) يريدون ارهاب باقي القرى العربية حين تسمع بما تم في ديرياسين من جرائم .

ج) طبيعة الصهيوني النازية بحب القتل والاعتداء ..

د) كل هذه الاسباب معاً .

١٠- لو كنتَ جندياً ورأيت فرقة اسعاف تسعفُ الجرحى في خطوط الاعداء ، فهل تطلق عليها الرصاص ؟

هذه السلسلة

جهدٌ كريم تحتاجه المرحلة الراهنة من مراحل الأجيال العربية الناشئة ، تقوم به عضو الرابطة روضة الفرخ الهدهد وتواصل القيام به في نقاءٍ وبساطة ، وبمنطق طبيعي سليم ، وبحرص أمين على المنطق الفطري للتاريخ ، حيثُ تحاول أن تستثير عن طريق هذه الحكايا البطولية شعلة النزوع للحق والعدل والنضال في نفوس الناشئين من الأجيال العربية .

ومن هنا كان ترحيب رابطة الكتاب الأردنيين بهذا الانتاج وهذه السلسلة .

صدر من هذه السلسلة

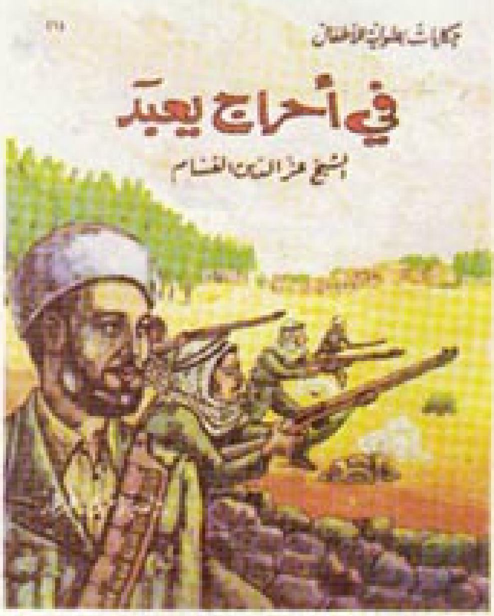

١- في احراج يعبد
الشيخ عزالدين القسام .

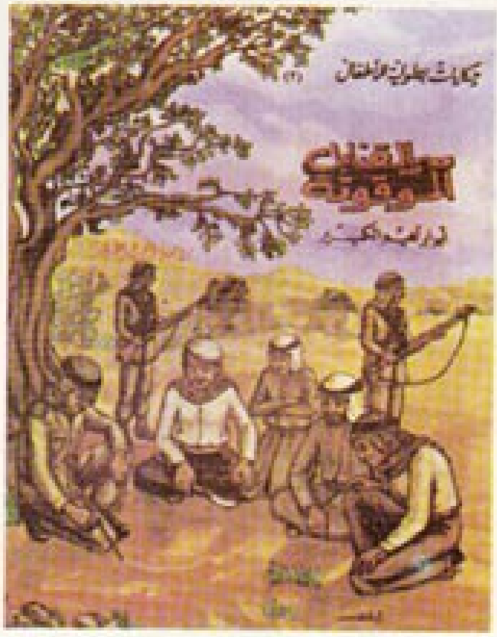

٢- سر القنابل الموقوته
ابو ابراهيم الكبير .

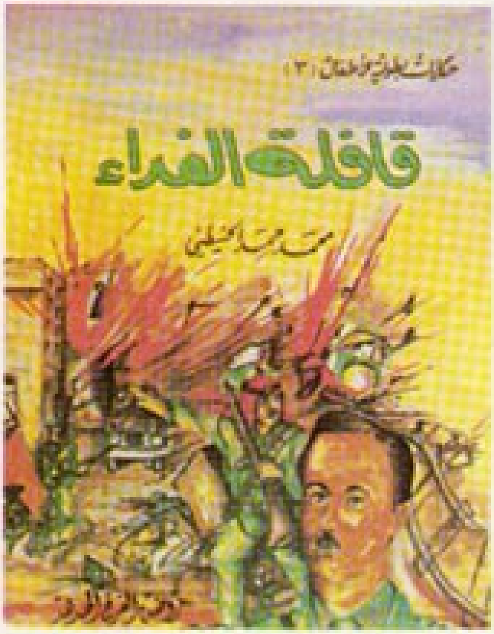

٣- قافلة الفداء
محمد حمد الحنيطي

الكتاب القادم

٥- البطل الضاحك حسن سلامة . ٦- الشاعر عبدالرحيم محمود . ٧- البطل الطائر فراس العجلوني .